الفصل الثالث

نقد بول فييرآبند للعقلانية العلمية في فلسفة العلم

إن أهمية بول فييرآبند في فلسفة العلم تكمن في الطابع النقدي الذي وجهه للعقل والعلم الغربيين ، حيث يعنى النقد عدم قبول الظواهر والعمليات والقوانين التي تحيط بنا ببساطة، دون نقدها ومناقشتها جيدا ومحاولة تغييرها لهذا كان " النقد " يمثل المحور الأول والأساسي من محاور السلسلة التي اقتراحها بول فييرآبند للوصول – كما يدعى – للواقعية الحقة ، حيث وضع سلسلة يتقدم من خلالها العلم والمعارف الأخرى وهى :

النقد ⟵ الإنتاج الدائم للنظريات العلمية (الوفرة) ⟵ الواقعية.

فالنقد يعد بداية تقديم تعددية من النظريات والأنساق الفكرية المختلفة، فنحن لا نعمل وفق نظرية فردية أو نسق فكرى واحد، بل هناك تعددية نظرية نصل من خلالها إلى الواقعية التي تعنى الاستفادة من كل وجهات النظر حتى تلك التي تم تنحيتها ونبذها عن طريق منافسيها ، لهذا كانت الواقعية ، عند بول فييرآبند ، لا تعنى سلسلة من النظريات المتوافقة والمتجهة إلى الصدق، وإنما هي بالأحرى زيادة محيط البدائل غير المتوافقة وربما البدائل غير القابلة للمقايسة.

وانطلاقا من المعنى الإجرائي الذي يستخدم به بول فييرآبند النقد في فلسفته كشف عن أزمة الثقافة الغربية . فقد وجد بول فييرآبند أن ثمة منطقاً يسيطر على مجمل التفكير العلمي، هذا المنطق فرض سلطانه وسيطرته على العقل ذاته، بحيث أصبح أداة للسيطرة على الشعوب والأفراد الأخرى باسم "العقلانية".

هذا المنطق يكمن في تمركز المشروع الغربي الثقافي والحضاري على العلم الغربي وتصوره أن العلم الغربي، هو وحده دون غيره القادر على اكتشاف الطبيعة والسيطرة عليها وفك طلاسمها، وأنه المقيم الواحد والوحيد

للحضارات والمعارف الأخرى غير الغربية، لهذا كانت الدعوة إلى النظر في تاريخ العقل العلمي، من قبل بول فييرآبند دعوة ضرورية لمراجعة مفـــاهيم العقل والعقلانية والموضوعية العلمية وغيرها من المفاهيم التي سيطرت على مجمل تاريخ الفكر الإنساني، والقضاء على التصور التسلطي للعلم الغربـــي، والاستعاضة عنه بتصور آخر وهو وضع الثقافات والعلوم والمعارف غـــير الغربية في الاعتبار. لهذا كان بول فييرآبند يعد من المفكرين القلائل الذيـــن دعوا إلى ضرورة التعامل مع الشعوب غير الغربية بمزيد مـــن الاحـــترام، وذلك لأنه يرى أن إسهامات الثقافات غير الغربية تمثل صرحاً معرفيا وثقافيا لا يمكن إغفاله بأي حال من الأحول وأن عرقلة هذه الإسهامات ناتجة عن أن الثقافات الغربية ذاتها تسعى إلى تهميش كل ما هو غير غربي.

وقد بلغت الرؤية النقدية عند بول فييرآبند ذروتها عندما تناول دور العلم فـــي المجتمع ، حيث يرى أن كثيراً من المفكرين والأدباء قد أخطئوا دور العلـــم الحقيقي الذي ينحصر في تحرير الفرد من كل الأيديولوجيات المغرضة بمـــا فيها العلم ذاته، فقد عاب بول فييرآبند على كروبوتكين Kropotkin الفيلسوف الروسي الفوضوي ما ذهب إليه من ضرورة هدم المؤسسات وصور الاعتقاد التقليدية، واستثناء العلم من ذلك الهدم، ونقد بـــول فيـــيرآبند أيضـــا الكـــاتب المسرحي الذائع الصيت هنري إبســن Ibsen. H الـــذي انتقـــد الأيديولوجيـــا البرجوازية السائدة في القرن التاسع عشر بكل أشكالها إلا أنه يترك العلم بغير مساس ، وقد وجه بول فييرآبند نقده لكلود ليفي شـــــتراوس Strauss.l الـــذي جعلنا نفطن إلى أن الفكر الغربي لا يعتبر قمة الإنجاز البشرى الوحيد ، كمـــا كان يعتقد من قبل ، إلا أنه يستثنى العلم من انتسابه للأيديولوجيات.

لقد حاول فييرآبند أن يدافع في فلسفته عن المجتمع ضد كل الأيديولوجيـــات المغرضة بما فيها العلم ذاته، فتعرض للتوظيف الأيديولوجي داخل المؤسسات التعليمية، حيث يذهب إلى أن المدارس الغربية تقوم بتدريس الحقائق العلميـــة دون محاولة إيقاظ القدرة النقدية لدى التلاميذ لكي يكونوا قادرين على رؤيـــة الأشياء من المنظور النقدي، والأمر لا يختلف كثيرا في الجامعات حيث يتـــم تلقين الطلاب تلك الحقائق العلمية دون أية رؤية نقدية إن العلم ليـــس كتابـــاً

مغلقا لا يمكن فك طلاسمه إلا بعد سنوات من التدريب والتمرس بل هو نظام عقلي يمكن أن ينتقده أي شخص معنى بأمر العلم، وأن الصعوبة المزعومة للعلم ترجع إلى الحملة الأيديولوجية المنظمة التي يشنها العديد من العلماء الغربيين لإدخال الرعب في نفوسنا.

لهذا اتجهت الحضارة الغربية تحاول توظيف العلم توظيفاً أيديولوجيا وجعل العلم الغربي مقياس التفوق والعلمية وأصبحت العقلانية العلمية بدورها، تعنى محق الاختلافات والتغيير وكل أشكال التجديد والبدائل المطروحة وأشكال المعرفة غير الغربية، وهو ما يسمى بالأيديولوجيا التي هي شكل مباشر للتفكير بواسطة نموذج ما، فلا يمكن للجماعات أن تمارس التفكير إلا عبر الأيديولوجيا لأنها تقدم حلول جاهزة سريعة متفقة مع المعتقدات الجمعية، إذ تميل الجماعة إلى تصديق ما يتفق مع معتقداتها، أي ما له جواب جاهز في الأيديولوجيا السائدة... عندئذ تغلق دائرة المعرفة وتصبح الجماعة أسيرة نموذجها الأيديولوجي وبالتالي تصبح الأيديولوجيا أوضح صيغة لفعالية السيطرة، ومن ناحية أخرى فإن النسق المعرفي للنموذج الأيديولوجي لا يكتفي بفرض دعواه، بل ينفي كل ما عداها من الحقائق، إنه يؤكد نفسه أصلا بنفي كل ما عداه، لذلك فإن استبداده المطلق هذا لا ينكر مقولة التغيير فحسب، لكنه ينكر أساسا، احتمال كون العالم أو شئ من أشيائه قابلاً للتغيير. لهذا كان ولا يزال ثمة اعتقاد راسخ بأن العلم غربي المنشأ والتطور. إلا أن الأبحاث المستجدة في فلسفة العلم العاصر واهتمامها بتاريخ العلم قضت على وضعية العلم الغربي وعملت على فصل الأيديولوجيا التي تعمل على التحريف والاختلاف والتزييف من أجل أهداف سياسية.

ولا يخفي على أحد أن ثمة فكرة عن العلم تتمحور حول غربيته المطلقة والنظرة المركزية الأوربية في مناخ تسوده القوى العالمية الغربية على الأصعدة السياسية والاقتصادية والثقافية، هذه النظرة للعلم تكرس حتما تقدير الغرب المفرط لذاته واحتقاره لغيره وللحضارات الأخرى غير الغربية، ولا يساعد على تتبع الحقيقة العلمية في تطورها وتغيرها وتبدلها.

من هذا المنطلق أنتقد بول فييرآبند العلم الغربي بوصفه الأيديولوجيا المسيطرة على مجمل المشروع الثقافي الغربي، يقول بول فييرآبند: "لا شك أن العلم الغربي قد لوث معظم العالم بمرض معد، حيث أخذ العديد من الشعوب منتجاته المعرفية والمادية بوصفها صحيحة وحتمية، ولكن السؤال هل كانت هذه السيادة للعلم الغربي نتيجة لحجة كما يرى المدافعون عن العلم الغربي؟ وهل هناك خطوة للتقدم عن طريق الأسباب التي تتوافق مع مبادئ العقلانية الغربية. هل هذا التلوث الذي أحدثه العلم الغربي قد أدخل تحسينات على حياة هؤلاء الذين يؤمنون به؟ إن الإجابة لدى بالنفي، فالحضارة الغربية قد تم فرضها بالقوة وليس عن طريق حجة تبين صدقها، لقد سادت لان أسلحتها كانت أفضل.

إن بول فييرآبند يوضح لنا عدة نقاط هامة بعد جولته النقدية داخل الأسوار الحديدية التي تحيط العلم والمعرفة العلمية الغربية، هذه النقاط يمكن إجمالها كالآتي:

أولا: أن العلم مجرد تقليد tradition كغيره من التقاليد الأخرى المتنافسة، وبالتالي لا يمكن للعلم أن يكون حكماً على التقاليد والمعارف الأخرى. وأن المجتمع الحر لا يمكن أن يتأسس أو تقوم له قائمة عن طريق عقلانية علمية واحدة، أو تقليد للبحث واحد، أو منهج علمي أو نظرية علمية واحدة، بل يتأسس على تعددية التقاليد وروح التعاون على مستوى الحضارات والمعارف والأمم. لهذا كان المجتمع الحر الذي يدافع عنه بول فييرآبند، ينبغي أن تتساوى بداخله التقاليد المعرفية المختلفة، وأن العقلانية العلمية تعد تقليدا ضمن العديد من التقاليد الأخرى أكثر من كونها معياراً نقيس به مدى عقلانية أي مشروع علمي آخر، أو كونها معياراً موجهاً للتقاليد الأخرى.

ثانياَ: إن محاولة تفضيل العلم الغربي على أشكال المعرفة الأخرى يعد انتهاكاَ لحقوق المعارف الأخرى غير العلمية وغير الغربية على السواء، فقد ذهب بول فييرآبند إلى أن المدافعين عن أفضلية العلم على شتي ضروب المعارف الأخرى يستندون على أساسين هما : منهج العلم

الذي يجعل من العلم معرفة منظمة ، ونتائج العلم التي تصل إلى مرتبة اليقين الذي لا يشوبه أي شك ، هذه النتائج التي لا تدين لأي معارف أخري أو فعاليات غير علمية بحجة أنها نتائج مستقلة بذاتها، إلا أن هذين الأساسين سرعان ما ينهارا عندما نتعمق تاريخ العلم الذي يشهد أن فكرة وجود منهج علمي ما ينظم عملية اكتساب المعرفة العلمية الصحيحة لا يوجد ما يبرره ، خاصة أن هناك نظريات علمية كثيرة حققت تقدماً في العلم لأنها تجاوزت وانتهكت المناهج العلمية الثابتة والجامدة في عصورها ، وفضلا عن أنه لا يوجد نظرية علمية واحدة لا تدين،حتى ولا بالقليل، لفعاليات وإجراءات غير علمية، فقد يستقى عالم ما البذور الأولى لأفكاره النظرية من الأسطورة أو الحكمة الشعبية أو الأعراف والممارسات الاجتماعية المختلفة .

ثالثا: أن الديمقراطية المنشودة داخل المجتمع الحر تتيح الفرصة لكل التقاليد المعرفية للتعبير عن نفسها، إلا أن المجتمع الغربي المعاصر لديه تقليد واحد هو العقلانية العلمية المؤسسة على منهج علمي واحد ونظرية علمية واحدة، غريبة من ألفها إلى يائها. مما أدى إلى تهديد الديمقراطية ذاتها، لهذا يدعو بول فييرآبند إلى عقلانية علمية للتبادل المفتوح Open Exchange Scientific Rationality، إذا جاز لنا استخدام هذا التعبير، هذه العقلانية تسمح لكل التقاليد والثقافات والعلوم غير الغربية للمشاركة في التقدم العلمي الإنساني على السواء، وترفض وصمة التخلف والرجعية التي علقت بجبين العلم والثقافة غير الغربية ،لهذا رفض بول فييرآبند فكرة الوحدة الثقافية التي ينادى بها المشروع الثقافي الغربي للسيطرة والهيمنة على شعوب الحضارات الأخرى ، فتبدو الثقافة الغربية ثقافة كونية عالمية، بالإضافة إلى كونها علمية وتقنية صالحة لكل زمان ومكان ، وهذا يعنى محق الاختلافات والتغيرات والبدائل وأشكال المعرفة الأخرى المطروحة على الساحة المعرفية غير الغربية.

إن لسان حال بول فييرآبند يقول، أن الدعوات المعاصرة التي تتشدق بالعولمة والكوكبية والعالمية هي أفكار أيديولوجية مغرضة تحاول تثبيت دعائم ثقافة ما وهيمنتها على الساحة الفكرية والثقافية العالمية باسم العقلانية العلمية. لهذا

انتقد بول فييرآبند العقل العلمي كما تجلى في الثقافة العلمية الغربية من خلال فلاسفة العلم المعاصرين، فقد انتقد كارل بوبر من خلال عقلانيته العلمية التكذيبية النقدية وانتقد توماس كون من خلال عقلانيته العلمية المؤسساتية وفكرة النموذج القياسي، وانتقد إمرى لاكاتوس من خلال عقلانيته العلمية الميثودولوجية أو برامج البحث العلمي، فكيف انتقد بول فييرآبند هذه الصور المختلفة للعقلانية العلمية ؟

نقد العقلانية العلمية التبريرية...

تعرضت عقلانية بوبر النقدية للعديد من الانتقادات من قبل فلاسفة العلم المعاصرين، إلا أن بول فييرآبند كان أكثرهم جرأة علي أستاذه، فعلي الرغم من إعجاب بول فييرآبند ببوبر وتأثره بفلسفته في المرحلة الأولي من تطوره الفكري وهي المرحلة التي أطلقنا عليها من قبل المرحلة البوبرية، إلا أن بول فييرآبند ينتقد عقلانية بوبر من خلال محورين أساسيين:

- **الأول** : نقد نظرية المعرفة العلمية البوبرية، وخاصة المعرفة الموضوعية.
- **الثاني** : نقد معيار القابلية للتكذيب بوصفه الركيزة الأساسية التي ترتكز عليها العقلانية العلمية البوبرية.

يذهب بول فييرآبند إلى أن العقلانية العلمية النقدية البوبرية عبارة عن تقليد استقاه بوبر من الفلاسفة السابقين علي سقراط، وخاصة أكسينوفان Xenophanes (٥٦٠-٤٧٨ق-م) حيث تبغي هذه العقلانية إدراك العالم من أجل السيطرة علي الطبيعة والآخرين، وهي عقلانية تعددية بمعني تعددية الحجج التي تقف ضد بعضها البعض وتقارن بالمصدر الثابت للمعرفة، كما أنها تفضل الديموقراطية كصورة للمجتمع المفتوح .. وأخيرا تفضل هذه العقلانية الحضارة والعلم والديمقراطية الغربية علي أشكال الحضارات والعلوم والديمقراطيات الأخرى غير الغربية.

يعيب بول فييرآبند علي بوبر قوله بالمعرفة الموضوعية التي هي أساس وجوهر العقلانية العلمية النقدية البوبرية ، فقد ذهب بوبر إلى القول بأن المعرفة، علي الرغم من أنها من نتاج الإنسان، ورغم التغيرات التي يدخلها

عليها الإنسان، تظل موضوعية ومستقلة عنه، ومن هنا وقع بوبر في تناقض، فالمعرفة إذا كانت من نتاج العقل الإنساني فإنها لا يمكن، بأي حال من الأحوال، أن تستقل عن معتقداتنا وتوقعاتنا وفروضنا المسبقة، لأن هذه المعتقدات والتوقعات تؤثر، بشكل عام، في خبراتنا وتصوراتنا عن الواقع.

إن الفكرة التي يؤكد عليها فييرآبند هنا هي أن المعرفة العلمية تتخذ من الاعتقاد المسبق أو الفروض المسبقة أساسا تنطلق منه النظرية العلمية، كما تدخل الذات الإنسانية بصفة أساسية في هذه النظرية ، وهذا يؤدي إلى نتيجتين:

- **الأولي** : استحالة الوصول إلى معرفة موضوعية عن العالم الطبيعي المادي، وذلك لأن معرفتنا بالعالم الخارجي تأتي نتيجة تداخل الذات الإنسانية بقدرتها العقلية وفروضها المسبقة وقياسها وآلاتها.
- **الثانية** : أن معرفتنا عبارة عن تركيب عقلي تلعب فيه الذات دورا أساسيا وفعالا وليست معرفتنا، كما يدعي بوبر مطابقة موضوعية للواقع.

وإلي مثل هذا الرأي تذهب **يمني طريف الخولي**، برؤيتها الثاقبة وتحليلاتها الدقيقة حيث تنتقد بوبر في رفضه للاعتقاد. فليس الاعتقاد هو الإثم المبين، فالاعتقاد ليس مجرد عملية بيولوجية تدور داخل ذهن معين في عالم العقل، ولا ينبغي أن نلتفت إليها في العالم الموضوعي، كلا وذلك لسببين هامين:

- أن النظرية قبل أن تخرج إلى العالم الموضوعي لأبد أن تكون اعتقادا في ذهن العالم أو الفيلسوف أو المفكر الذي قال بها.
- أن أهم العوامل التي تجعل المثقف العادي يهتم بالعالم الموضوعي هو أنه يعينه علي تكوين اعتقاداته ، فشخصية الإنسان هي مجموعة اعتقاداته وهي الهدف النهائي للبحوث الفلسفية والعلمية.

ويعيب بول فييرآبند علي العقلانية العلمية البوبرية حرص بوبر الدائم علي وضع قواعد ومعايير وقيود لفصل السلوك النقدي عن الأنواع الأخرى من السلوك، لكي نكشف عن الأفعال اللا-عقلانية ونفندها ونستبعدها وفقا للمعايير البوبرية، ولعل أهمها معيار القابلية للتكذيب، فالعقلانية العلمية النقدية يكمن جوهرها في النقد وليس في محاولة البرهنة أو تقديم أية احتمالات، وتصبح

كل خطوة في سبيل النقد هي خطوة علي طريق العقلانية العلمية الحقة، تقول العقلانية العلمية النقدية " قم بتطوير أفكارك لكي تكون قابلة للنقد، شن هجوما قاسيا عليها، لا تحاول أن تربط بين أفكارك وأفكار أخري، فقط حاول أن تظهر نقاط ضعف أفكارك".

ويتساءل فييرآبند :هل يمكن أن نتوافق مع قواعد العقلانية العلمية البوبرية ؟ الإجابة لديه بالنفي، ذلك أن مثل هذه القواعد التي يفرضها علينا بوبر تعمل علي تقييد حريتنا... إن حريتنا التي ننشدها تعني التحرر من استبداد الأنساق المقيدة للفكر. لهذا يطالبنا فييرآبند بضرورة إعادة صياغة العلوم وفقا للتصور السابق للحرية، وهو جعل العلوم أكثر ذاتية وتحررا من القيود والمعايير والأسس التي تفرضها العقلانية العلمية البوبرية.

ومن ناحية أخري يري فييرآبند أن معيار القابلية للتكذيب معيار متزمت، أو كما أطلق عليه لاكاتوس معيار التكذيبية الساذجة أو الدجماطيقية. فهذا المعيار يعرقل العلم ولا يتيح الفرصة لكي يتقدم، ذلك لأن العقلانية العلمية البوبرية عقلانية تقنية تتجه إلى الخطابة أكثر ما تتجه إلى الممارسة العلمية الصحيحة. فقد كان هدف بوبر وتلاميذه هو العمل علي تطوير هذه العقلانية والدفاع عنها، ولم يكن هدفهم فهم أو مساعدة العلماء، أو محاولة فحص العقلانية بمقارنتها بالممارسة العلمية، بل كان هدفها الأساسي تطوير وجهة نظر خاصة بحيث تكون في صورة مقبولة منطقيا ومناقشة كل شئ في حدودها، هذه العقلانية العلمية النقدية الصارمة هي التي تقرر صورة ومضمون المبادئ المقبولة.

وقد يعترض البعض علي قول فييرآبند السابق ورفضه للعقلانية العلمية البوبرية النقدية في حين أن النقد يمثل العنصر الأساسي من عناصر فلسفته، أليس هذا التناقض يزعزع الثقة في فلسفة فييرآبند أصلا ويفند انتقاداته لعقلانية بوبر؟ نقول أن عقلانية بوبر العلمية النقدية تستند علي النقد وهو هنا التكذيب، ذلك المبدأ أو المعيار الذي يرفضه فييرآبند رفضا نهائيا ، صحيح أن فييرآبند ينادي بضرورة توخي النقد وجعله هاديا لكل إنسان، إلا أن هذا النقد يختلف عن النقد البوبري، لأن عقلانية فييرآبند النقدية تعمل علي تطوير

الأفكار القديمة التي يستبعدها النقد البوبري أصلا من فلسفته، لهذا يرفع فييرآبند شعارا أصبح يمثل أساس عقلانيته العلمية أعني شعار "كله مقبول Anything goes الذي يعد النتيجة العملية الواضحة لكل عقلانية علمية نقدية.

إن العقلانية العلمية النقدية عند بوبر تقوم علي معيار ثابت هو معيار القابلية للتكذيب، هذا المعيار الذي يفصل بين العبارات التجريبية والعبارات الميتافيزيقية، إلا أن فييرآبند يري أن بوبر حاول أن يشيد قلاعا في الهواء، فقد بينت الأبحاث التاريخية أنه لا يوجد في أي مكان مجموعة من العبارات تكون علمية خالصة بالمعني البوبري وكافية لتقديم نتائج يقينية في العلوم، فوفقا للعقلانية العلمية البوبرية يتقدم العلم بمساعدة الفروض المناسبة والقابلة للتكذيب والغنية بمضمون ما، والقابلة لأن تقف في وجه أية محاولة تنشأ من الخصوم لعرقلة تلك المسيرة التقدمية، إلا أن فييرآبند يري أن هذا التفسير غير مرضٍ لعدة أسباب:

- **<u>السبب الأول:</u>** " أن النظرية العلمية لا يتم استبدالها دائما عن طريق التكذيب، فهناك أمثلة كثيرة في تاريخ العلم تدل علي ذلك، فلم يكن ثمة واقعة مفندة أو مجموعة من الوقائع تستطيع تفسير التحول من النظام البطلمي الأرسطي، كما أنه لا يوجد ثمة واقعة مفندة تستطيع تفسير التحول عن نظرية لورانتز في الإلكترونات وتجربة ميكلسون التي غالبا ما يتم التنويه عن علاقتها بالحالة الأخيرة التي يتم تفسيرها عن طريق لورانتز، أي عن طريق زيادة المضمون."
- **<u>السبب الثاني</u>** : يوجد العديد من الحالات التي تؤكد أن الانتقال من نظرية علمية ما إلى أخري يتضمن تغير في المبادئ الكلية، وهذا يعمل علي كسر الخطوط المنطقية بين النظرية العلمية الجديدة ومضمون سابقتها، وبالتالي لا يوجد ما يبرر القول البوبري برجحان الصدق وزيادة المضمون المعرفي والتجريبي للنظرية العلمية عند بوبر.
- **<u>السبب الثالث</u>** : أن المضامين ليست دائما في ازدياد، فهي تتضاءل بطريقة اتفاقية، أو يتم تكيفها بطريقة مغرضة، ذلك أن التكيفات المغرضة Ad Hoc Adaptations غالبا ما تكون صحيحة ويؤخذ بها، فقد أفترض بعض

الباحثين في التاريخ المبكر للكهرباء بأن الشعر والأوراق والأغصان والقش تشتمل علي كهيرب كعنصر مشترك كامن فيها، وهي الفكرة التي اعتقد بسذاجتها وليم جلبرت Gilbert. W، في حين أن هذه الفكرة كانت خطوة في الاتجاه الصحيح، وهذا ما يشبه أيضا الملاحظات المطبقة علي بعض حركات جاليليو.

- **السبب الرابع**: أن البحث عن تفنيدات وأخذها موضع الاعتبار يؤدي إلى عالم ثابت ومنتظم من الحالات المفندة، في حين يمكن العيش في سلام مع نظرياتنا المفندة ونعمل علي تحسينها.

يحاول فييرآبند أن يؤكد أن العقلانية العلمية النقدية التكذيبية تقابل الكثير من العقبات التي لا يمكن تذليلها، حيث تعمل هذه العقلانية علي تقويض العلم دون أن تعطينا أية بدائل لأنها تجعلنا نقف وراء ركام هائل من النظريات المكذبة، وليس أدل علي ذلك من جاليليو الذي دافع عن النسق الكوبرنيقي وانتهاكه الدائم للتكذيبات التي حاولت النيل من النسق الكوبرنيقي. إن افتراض كوبرنيقوس أن الأرض تتحرك، وأنها ليست هي مركز الكون، بل الشمس، قد فجر مشكلات ديناميكية عديدة كانت ستطيح بالنسق الكوبرنيقي إلى غير رجعة، لولا جهود جاليليو الذي قدم فرضا عينيا، أعني قانون القصور الذاتي، هذه الخطوة أدت إلى تقدم العلم، لهذا ينتهي فييرآبند إلى القول " أن مبادئ العقلانية العلمية النقدية كمعيار التكذيب وزيادة المحتوي وتجنب الفروض العينية وتأسيس النظريات علي القياس وتجنب الغموض والأفكار غير الثابتة، تؤدي إلى إعاقة تقدم العلم... لأن العلم سيكون أكثر إفراطا ولاعقلانية إذا اعتمد علي الوهم الميثودولوجي... إن هذه المبادئ البوبرية تعوق العلم في المستقبل لأنها تحاول أن تجعل العلم أكثر عقلانية ودقة، في حين أنها تعمل علي تبديد العلم نهائيا.

لهذا لا يتقدم العلم إلا بالتخلي عن العقل المألوف الذي ورثناه من العقلانية العلمية الحديثة (الكلاسيكية ؟) فالأفكار التي تشكل أساس العلم اليوم تعتمد علي التنبؤ والخيال والانفعال، إن العلم المعطي اليوم يسمح للعقل أن يكون شاملا وكليا بحيث يشتمل علي الأساطير والعقائد اللاهوتية والميتافيزيقية

وغير ذلك من الأفكار التي يتم استبعادها من العلم بحجة أنها لاعقلانيـــة. إن التبادل بين العلم وغير العلم من الأمور المثمرة والضرورية لتقدم العلم مــن ناحية، وتطوير ثقافتنا بوجه عام من ناحية أخري، وما يقوم به العقل هو ربط تلك الوجهات من النظر والأفكار والعقائد التي تبدو شاذة وغير عقلانية.

نقد عقلانية المجتمع العلمي..

رغم ما يبدو من أوجه تشابه بين عقلانية توماس كون العلمية وعقلانية بــول فييرآبند، إلا أن توماس كون لم يسلم من انتقادات فييرآبند، حيث يذكر هــذا الأخير في دراسة له تحمل عنوان "عزاءات للمتخصص" أنـــه فـــي عـــامي ١٩٦٠-١٩٦١ عندما كان توماس كون عضواً في قســـم الفلســـفة بجامعـــة كاليفورنيا بباركلي، قامت عدة مناقشات بيني وبين توماس كون أسفرت عــن رؤيتي للعلم من منظور جديد يختلف عن المنظور التقليدي الذي كنت اعتقده، إلا أن الوضع قد تغير تماما بعد ذلك، فقد أصبحت غير قادر علي التوافق مع نظرية العلم التي يقترحها توماس كون من ناحية، ومع الأيديولوجيا التي تقبع خلف تفكيره من ناحية أخرى، هذه الأيديولوجيا التي تبدو لي أنها نوع مــن التعصب المغرور من قبل علماء المجتمع العلمي الذي ينشده توماس كون، إن هذه الأيديولوجيا تعمل علي كبت تقدم المعرفة وعلي زيادة الاتجاهات التـــي تقف ضد كل ما هو إنســـاني". ذلـــك لأن فـــرض أيديولوجيـــا العلمـــاء أو بمصطلحات توماس كون فرض نموذج إرشادي قياسي محدد، يحدده العلمـــاء أنفسهم في المجتمع العلمي، يؤدي إلى عرقلة مسيرة التقدم العقلـــي والعلمـــي علي حد سواء، هذا التقدم الذي لا يحدث بفرض نموذج إرشادي قياسي مـــا علي المجتمع، وإنما بإعطاء الفرصة لكل أشكال المعرفة الأخـــرى العلميـــة وغير العلمية للتعبير عن نفسها داخل المجتمع.

إن فرض نموذج إرشادي قياسي ما يؤدي إلى كبت الحريات الإنسانية ، تلـــك الحريات التي تنشد التعددية بين النماذج والنظريات ووجهات النظر المختلفة ، فعلي الرغم من التصريحات العددية التي يقول بها توماس كون حول عنايتـــه

بعلم اجتماع المعرفة وعلم النفس الاجتماعي، إلا أنه يقصر اهتمامه علي الجماعة العلمية.

ويطرح فييرآبند عدة تساؤلات لتقييم عقلانية كون العلمية منها: هل نحن مع عقلانية كون أمام ادعاءات منهجية تخبر العالم بكيفية التقدم، أم نحن أمام وصف معطي يتجنب أي عنصر يقيم تلك الأنشطة التي ندعي أنها علمية؟.

إن كتابات كون لا تعطي إجابة شافية وهذا ناتج عن الغموض الذي يكتنف عقلانية كون العلمية، ويري فييرآبند أن هذا الغموض مقصود من قبل كون، فهو يريد أن يستثمر كل إمكانياته للترويج لدعوته، فهو يريد من جانب أن يعطي قوة وموضوعية وسندا تاريخيا لقيمة الحجج التي تبدو للكثيرين أنها اعتباطية وذاتية، ومن جانب آخر يترك لنفسه مساحة للتراجع. ويعطي فييرآبند مثالا علي هذا الغموض الذي يكمن ليس فقط في عدم الدقة في التعبير والغموض الذي يشوب مفاهيمه الأساسية، بل أيضا في اعتقاد كون بأن السمة المميزة للنشاط العلمي علي إطلاقه يكمن في حل المعضلات، فالعالم عندما يصوغ فرضا جديدا، إنما يهتم بحل المعضلات التي تنشأ عن ذلك الغموض، وهذا يؤدي في رأي فييرآبند، إلى تعزيز النظام القائم.

ويري فييرآبند أن العلم القياسي هو والجريمة المنظمة شئ واحد، حتى أننا يمكن استبدال كل عبارات العلم القياسي بعبارات الجريمة المنظمة، وأن كل عبارة تنطبق علي العالم الفرد يمكن أن تنطبق أيضا علي أكبر لص أو مجرم فرد. إن توماس كون يعجز عن تقديم شئ عن هدف العلم، فإذا كان المحتال يعرف جيدا أن جزءا من نجاحه في تجارته يعتمد علي النقود، فالنقود هي هدف المحتال فلكي يصل إليها لابد أن يصعد علي سلم الاحتراف ليصبح افضل رجل قادر علي حل أي معضلة لكي يتلاءم ويتوافق مع المجتمع الإجرامي، ولكن ما هو هدف العالم ؟ هل هو العلم القياسي، وهل العلماء أقل فطنة من المحتالين لكي يعجزوا عن معرفة هدف العلم؟

إن هذه التساؤلات جعلت فييرآبند يناقش وظيفة العلم القياسي عند كون، يقول فييرآبند: "لكي أجيب علي تلك التساؤلات يجب أن نضع في الاعتبار، ليس البنية الواقعية للعلم القياسي فقط بل وظيفته أيضا" ومن هنا جاء نقد فييرآبند لفكرة النموذج الإرشادي القياسي التي تعد جوهر العقلانية العلمية المؤسساتية، فقد أوضح فييرآبند أن النموذج الإرشادي القياسي مشكلة أكثر منه حلا لمشكلة، فنموذج توماس كون للتقدم به العديد من الصعوبات النظرية والتجريبية، فضلا عن الغموض والالتباس والتناقضات الذاتية في استخدام هذه الفكرة، كما أكد فييرآبند علي أن فكرة النموذج الإرشادي القياسي تعد غير صالحة من الناحية التاريخية، فكل فترة بارزة في تاريخ العلم تتميز بتعايش العديد من النماذج الإرشادية القياسية، لهذا انتقد فييرآبند توماس كون في قوله بالمجتمع العلمي والذي يديره جماعة الباحثين التي تتمسك بقالب نظامي ونماذج مثالية ثابتة يتم في إطارها اكتساب المعرفة.. إن هذا المجتمع العلمي يعد جزءا من مجتمع عالمي أكبر يدعم المجتمع الأول.. ثم أن المجتمع العلمي يبدأ في الحقيقة بنظرة عالمية أولية موروثة عن الماضي في إطار بيئة ثقافية اجتماعية معينة، ثم يسعي إلى إكمال هذه النظرة، وإذا اعتنق هذا المجتمع هذه النظرة العلمية دون نقد أو مناقشة والسعي إلى تحسينها، اصبح الموقف مختلفا، إذ أنه ما لم تسود روح النقد والمناقشة ستنتصر روح الجمود والمحافظة علي النظام القائم وحينئذ يصبح كل ما يتفق مع التقاليد الموروثة موضع التسليم، ولا تلقي الاكتشافات الجريئة تشجيعا، وتصبح الفروض البديلة محاولة للهدم. وهذا ما حاول فييرآبند أن يثبته من خلال نظريته في التعددية المنهجية.

ومن جهة أخري اخفق توماس كون في حل مشكلة العلاقة بين النموذج الإرشادي القياسي والنظريات المساعدة، فهل النموذج الإرشادي القياسي في حاجة إلى نظريات مساعدة أم لا، وهل هذه النظريات تعمل علي تبرير النموذج وتقدمه أم العكس هو الصحيح؟ لا توجد إجابة شافية علي هذا السؤال في عقلانية توماس كون العلمية، لهذا كانت العقلانية العلمية المؤسساتية ذات

بنية جامدة، هذه البنية تعوق العلم عن التطور والتقدم، علاوة علي ذلك، فإن توماس كون استثني النقد من لب الافتراضات التي وضعها لعقلانيته، فلم يستطع أن يبين لنا العلاقة الأساسية بين النماذج الإرشادية القياسية الجامدة والوقائع التاريخية.

لقد أثارت العقلانية العلمية المؤسساتية عند توماس كون العديد من الصعوبات المعرفية والمنهجية التي أحالت دون تقدم العلم والمعرفة العلمية، فضلا عن النزعة التبريرية التي تكتنف هذه العقلانية والتي حاول فييرآبند، تجاوزها .

نقد عقلانية الثبات المنهجي...

اختلف موقف فييرآبند من لاكاتوس عن موقفه من بوبر وكون، وذلك لوجود أوجه شبه كثيرة بينهما، إلا أن هذا لم يمنع فييرآبند من توجيه الانتقادات لعقلانية لاكاتوس العلمية المنهجية ، يقول فييرآبند: "أن لاكاتوس، وهو فيلسوف العلم الحديث والوحيد في الاتجاه الأنجلو أمريكي، الذي فسر مشكلة العقلانية العلمية بوصفها مشكلة تاريخية، حيث استرشد بالتطورات العلمية بعد الثورة الكوبرنيقية للتدليل علي صحة ما يذهب إليه، إلا أنه لم ينجح في بيان هذا الموضوع، أعني العقلانية، حيث أنه أدرك الموضوع إدراكا تاريخيا فقط دون أن يدركه فلسفيا".

كما أن عقلانية لاكاتوس العلمية المنهجية تحاول من جهة أخرى أن تتغلب علي عقبات العقل التي تم اكتشافها بفضل الأبحاث والدراسات المستجدة في فلسفة العلم، لقد حاول لاكاتوس أن يطور صورة العقلانية للتغلب علي تلك العقبات عن طريق عقلانيته العلمية المنهجية، إلا أنه أخفق في ذلك.

ورغم تلك الانتقادات من قبل فييرآبند إلا أنه يشيد بلاكاتوس، فهو يذكر أن لاكاتوس أحد المفكرين القلائل الذين لاحظوا الثغرة الهائلة بين الصور المتباينة للعلم، وأدرك أيضا أن محاولة إعادة صياغة العلوم بطريقة مغلقة وثابتة محاولة محكوم عليها بالفشل لأول وهلة ويمكن تقويضها بسهولة، ويتفق فييرآبند مع لاكاتوس حول نقد هذا الأخير للمحاولة التي تسعي إلى إعادة تشكيل العلوم وذلك بردها إلى علم واحد، وهي المحاولة التي تعرف

بنظرية الرد Theory of Reduction التي قال بها التجريبيون المناطقة، حيث تعمل هذه النظرية علي الإضرار بالعلم وتقويض دعائمه.

ويذكر فييرآبند أيضا انه يوافق لاكاتوس في افتراضين أساسيين يمثلان جزءا هاما وأساسيا من نظرية العلم عند لاكاتوس وهما:

- **الافتراض الأول** : أنه يجب أن نعطي للأفكار الجديدة مساحة للتنفس وأن نضعها دائما في الاعتبار، فالنظرية الجديدة المعطاة يجب أن يسمح لها بتطوير نفسها ومحاولة تفادي أخطائها التجريبية، فليس عدم الاتساقات الداخلية الصارمة ولا الافتقار الواضح للمضمون التجريبي ولا الصراع مع النتائج التجريبية سوف يعوقنا عن الاحتفاظ وتوسيع وجهة نظر ما نؤمن بها وترضينا لسبب أو لآخر.

  فعندما تدخل نظرية جديدة أو فكرة جديدة علي مسرح العلم تكون عادة غير متسقة، كما أنها عادة ما تحتوي علي تناقضات وتكون علاقتها بالوقائع غير واضحة، وتكون مليئة بالأخطاء، ومع ذلك يمكن أن تتقدم وندخل عليها تحسينات، فلا يمكن أن نحكم علي منزلة برنامج بحث ما يوجد في فترة زمنية محددة، بل يجب أن نحكم علي تاريخه وأفضليته عن طريق مقارنته مع تاريخ البرامج المنافسة.

- **الافتراض الثاني** : أن المعايير المنهجية لا يمكن أن تكون وراء النقد، فهذه المعايير يمكن فحصها وتحسينها واستبدالها عن طريق معايير أفضل، والفحص والتحسين لا يكون مجردا، بل لابد من استخدام المعطيات التاريخية، ذلك أن المعطيات التاريخية تلعب دورا دقيقا في المناقشة بين البرامج والمناهج المتنافسة.

ولابد أن نشير إلى أن النقد الذي وجهه فييرآبند إلى لاكاتوس وعقلانيته العلمية المنهجية قد جاء بالتفصيل في الفصل الذي خصصه فييرآبند في كتابه "ضد المنهج" لنقد هذه العقلانية، هذا الكتاب الذي كان في الحقيقية ردا علي لاكاتوس، فلاكاتوس، في رأي فييرآبند مهموم بزيادة عدد أصدقاء العقل وإعادة الثقة إلى المتشككين في الفلاسفة العقلانيين ، ويؤكد علي أننا لا يمكننا العيش بدون سلطة العقل. إلا أن فييرآبند يؤكد علي أن إلحاح لاكاتوس علي

سلطة العقل كان يمثل بالنسبة لهذا الأخير معضلة، ذلك أن العلم عند لاكاتوس مغامرة عقلية لا تعرف حدودا ولا تضع في اعتبارها أي قواعد حتى ولو كانت قواعد المنطق ذاتها.

ويناقش فيرآبند نقطة هامة في عقلانية لاكاتوس العلمية المنهجية وهي وضع لاكاتوس مجموعة من المعايير المحددة التي نقيس بها مدي تقدم برنامج بحث ما أو تأخره، أهم هذه المعايير فكرة النمو النظري Theoretical Growth ذلك أن تقدم برنامج بحث ما يتوقف علي أن نموه النظري يسبق نموه التجريبي، وهذا يعني قدرة برنامج البحث علي التنبؤ بها، فهذا معناه أن برنامج البحث متقدم نظريا وتجريبيا، وهذا هو معيار علمية النظرية، فالأساس هو النمو النظري، فإما أن يحاول البرنامج تفسير ما يواجهه من صعوبات فقط وهو في هذه الحالة برنامج متدهور، أو أن النمو التجريبي يسبق النمو النظري وبالتالي لا يكون ثمة نمو، فعامل الاستباق من أهم العوامل المحددة للتقدم العلمي عند لاكاتوس.

وبهذا تختلف العقلانية العلمية المنهجية عند لاكاتوس ، فيما يقول فيرآبند، عن المذهب الاستقرائي الذي يستبعد النظريات التي تفتقر إلى الافتراض التجريبي، وتختلف عن المذهب التكذيبي الذي يستبعد النظريات التي تفتقر إلى المضمون التجريبي، إلا أن عقلانية لاكاتوس العلمية المنهجية لا تحتوي علي أي من هذه المطالب، فكما ذهبنا من قبل، يري لاكاتوس أن عقلانية النظريات تكمن في إعطائها مساحة من التنفس أو مساحة للتعبير عن نفسها، فأي اختيار للعالم بين النظريات هو اختيار عقلاني لأنه يتوافق مع المعايير التي يؤمن بها.

ويعيب فيرآبند علي لاكاتوس إيمانه بتلك المعايير الثابتة والمحددة التي نقيس من خلالها مدي تقدم برنامج بحث ما أو تأخره، ويري أن هذه المعايير لا هي عقلانية ولا هي لا عقلانية وإنما تنتمي إلى الحس المشترك ، ففي نقد لاكاتوس للتكذيبية الساذجة يؤكد علي أن معايير العقلانية العلمية الجديدة والتي تتيح للعلم البقاء تكمن في الحس المشترك، لهذا لم يجد فيرآبند أي اختلاف بين لاكاتوس وآباء الكنيسة القدماء، الذين قدموا عقائد ثورية في

مظهر صلوات مألوفة وشكلوا بها الحس المشترك آنذاك، فأصبحت هذه العقائد تدريجيا هي الحس المشترك ذاته.

ومما يجدر الإشارة إليه هنا مناقشة فييرآبند لمحاولة لاكاتوس إعادة بناء تاريخ العلم بطريقة عقلانية، حيث يذهب فييرآبند إلى القول بأنه يتفق مع لاكاتوس في أن تطوير نظرية المنهج العلمي يأتي عن طريق مقارنتها بالمعطيات التاريخية، إلا أن المعطيات التاريخية التي يستخدمها لاكاتوس هي التخمينات الأساسية للصفوة العلمية أو أحكام القيمة الأساسية Basic Value Judgments كما يطلق عليها لاكاتوس، فهذه الأحكام تعمل كوسيلة لتأييد برنامج بحث أو لتكذيب آخر، أما بالنسبة للاكاتوس فإن أحكام القيمة الأساسية والتي يطلق عليها لاكاتوس "الحكمة العلمية المشتركة" هي الأساس لكل مناقشات نظرية المنهج العلمي لأنها يتم قبولها عن طريق العلماء العظام المتخصصين.

ومن ناحية أخرى فإن أحكام القيمة الأساسية ليست ثابتة كما يفترض لاكاتوس، فالعلم منقسم إلى أنظمة عددية، وكل واحد منها يتبنى اتجاها مختلفا تجاه نظرية معطاه، والأنظمة الفردية إلى حد ما منقسمة بدورها إلى مدارس، فأحكام القيمة الأساسية لدي الفيلسوف التجريبي سوف تختلف عن تلك الأحكام التي يستخدمها الفيلسوف النظري، كما أن البيولوجي سوف ينظر إلى نظرية ما بطريقة مختلفة عن عالم الفلك، فكل واحد منهما له أحكام قيمة أساسية خاصة به.

ومن ناحية ثالثة فإن أحكام القيمة الأساسية نادرا ما تقدم أسبابا يمكن الثقة بها، فكل شخص كان يوافق علي أن فرض كوبرنيقوس كان خطوة كبيرة إلى الأمام، وكان أي شخص يستطيع أن يعطي قيمة جزئية مقبولة له، لهذا يرى فييرآبند أن إعادة البناء العقلاني للعلم وتاريخه، والذي يستخدمه لاكاتوس كمقياس للمنهج، ليس نتيجة كلية لأحكام القيمة الأساسية، ولا هي برنامج بحث جيد، بل هي نظام تعددي من السلطات، لهذا ينتهي فييرآبند إلى القول: "أن الحجج التي يقدمها لاكاتوس ليست نتائج للبحث ولا هي أجزاء من الممارسة العلمية، إنها جزء من أيديولوجيا يريد لاكاتوس أن يفرضها علينا

علي شكل الحكمة العلمية المشتركة، لهذا لا يختلف لاكاتوس عن فلاسفة العلم التقليديين الذين يريدون أن يعطوا لمبادئهم قوة وحيل جديدة وهذا يظهر بجلاء في إعطاء لاكاتوس حجما أساسيا للحس المشترك داخل فلسفته العقلانية المنهجية".

وكعادة فييرآبند يقارن بين عقلانية لاكاتوس العلمية وعقلانية توماس كون، فالعقلانية العلمية المنهجية عند لاكاتوس، علي الرغم من أنها أنجزت تقدما كبيرا، إلا أنها مليئة بالنواقص والعيوب، فهي لم تتجاوز منافسيها في كل النواحي، فقد أعطى توماس كون أهمية للتطورات العلمية في عقلانيته ، في حين يفرض لاكاتوس علي الباحث أن يبحث في التفاصيل الخاصة جدا من قبيل: ما هي النواة الصلبة؟ وما هو الحزام الواقي من الفروض؟ وما هو الموجه المساعد علي الكشف؟ وكيف يتم استخدام هذه العناصر في تفسير الظواهر الجزئية؟ إن عقلانية لاكاتوس العلمية عقلانية ممزقة بالمقارنة بعقلانية توماس كون.

إن المشكلة الحقيقية في العقلانية العلمية المنهجية عند لاكاتوس يكمن في طرح هذا السؤال: كيف يتم الانتقال من برنامج البحث القديم إلى برنامج البحث الجديد، أيُ القواعد المنهجية الجديدة التي نستخدمها لكي نقرر هل فشل البرنامج القديم فشلا تاما بحيث يتعين إحلال برنامج جديد مكانه، أم يوجد احتمال لنجاحه في المستقبل ؟ لنفترض أننا ونحن نحاول حل مشكلة ما رأينا ما يتعارض مع التجربة، وحاولنا تعديل الحزام الفرضي الواقي فسيكون أمامنا النظرية (ن) ولكن ماذا لو اتضح لنا أن المسلمات العامة للبرنامج المتصل بالنواة الصلبة باطلة، فإنها في هذه الحالة لن تؤدي إلى نتائج جديدة علي الإطلاق، ومن هنا جاءت صعوبة قبولها، وبالتالي لا تكون النظرية القديمة باطلة، فهل يمكن إعادة التجربة مرة أخرى علي أمل أن نستطيع وضع نظرية جديدة تتوافر فيها شروط النظريات المتقدمة أم ننبذ البرنامج القديم كلية ونبحث عن برنامج جديد؟

في حقيقة الأمر أن هذه المشكلة قد عالجها بوبر علي مستوي النظريات، وما فعله لاكاتوس هو أنه نقل المشكلة من مستوي النظريات إلى مستوي البرامج،

وأصبحت المشكلة الآن هي مشكلة الاختيار بين البرامج التي لم يحلها بطريقة تشفي غليل فييرآبند، لهذا ينتهي فييرآبند إلى القول بأن التعديلات التي ادخلها لاكاتوس علي منطق الكشف العلمي لبوبر لم تحل المشكلة التي قصد بهذه التعديلات حلها، فهذه التعديلات لا تفسر لنا بطريقة منهجية كيفية الانتقال من برنامج بحث قديم إلى برنامج بحث جديد، لذلك فإن مسألة إمكان تفسير هذا الانتقال بالطرق المنهجية سوف تبقي بلا حل. لهذا يذهب فييرآبند إلى القول أن عقلانية لاكاتوس العلمية المنهجية زينة لفظية تشبه ذاكرة الأزمان الخالية حيث كان الاعتقاد في أنه من الممكن النهوض بمشروع معقد مثل العلم وذلك بالركون إلى عدد قليل من القواعد البسيطة والمعقولة.

لقد اعتقد بعض الباحثين أن الانتقادات التي وجهها فييرآبند إلى العقلانية العلمية كما عبر عنها كارل بوبر وتوماس كون وإمري لاكاتوس هي دعوة مضادة للعقل والعقلانية والتفكير العقلاني، إلا أن فييرآبند علي العكس يقدم تصورا جديدا للعقلانية العلمية في فلسفة العلم يعبر عن ملامح فكر جديد وفلسفة علم أكثر حرية وثورية وجذرية.

إن الدعوة المضادة للعقل والعقلانية التي أعلنها فييرآبند صراحة في كتابه " وداعا للعقل Farewell To Reason تخفي بين طياتها عقلانية علمية تطالب بضرورة تجاوز العقل العلمي الغربي التقليدي ذاته والبحث عن المزيد من الحرية له والخروج من الأطر المنهجية المألوفة وإدماج قوي أخرى، حتى تلك التي تبدو مضادة له، في داخله ،كتقاليد الثقافات والحضارات الأخرى غير الغربية.

الخاتمة

لقد أصبح العقل العلمي الغربي الحديث أداة للتحكم في الطبيعة والسيطرة عليها من جهة، والسيطرة علي الآخر غير الغربي من جهة أخري، لقد تحول هذا العقل إلى عقل أداتي يفرض سيطرته وهيمنته تارة باسم الموضوعية وتارة أخري باسم العقلانية وتارة ثالثة باسم العولمة والنظام العالمي الجديد ، فغدا العقل والعلم الغربيين سلاح المجتمع العقلاني الغربي في نقد الأفكار والتصورات غير الغربية التي توصف عادة بأنها أفكار لا معقولة وميتافيزيقية ودينية محافظة ومشوهة تنشر الخرافة بين الناس مما تجر التعاسة والديكتاتورية علي الشعوب التي تعتقد فيها وتأخذها موضع التسليم ، وبالتالي اعتبرت العقلانية العلمية الغربية أن كل الأفكار والتصورات والتقاليد غير الغربية تقف ضد التقدم والعقلانية والتنوير فتحولت هذه العقلانية إلى ذات تعتبر نفسها المعيار أو المقياس الذي نقيس علي أساسه الأشياء كلها.

لقد حاولت العقلانية العلمية الغربية تشويه التصورات العقلانية العلمية الأخري غير الغربية بحجة أن هذه التصورات ليس لديها القدرة علي تحمل الأعباء المعقدة التي يمر بها الواقع العلمي العالمي المعاصر، وبالتالي تصبح هذه التصورات غير مؤهلة سواء من الناحية التاريخية أو من الناحية المعاصرة للتعبير عن نفسها وتحقيق أي نوع من التقدم العلمي والعقلاني بحجة أن هذه التصورات مغرقة في المحلية ، لهذا نصبت العقلانية العلمية الغربية من نفسها عقلانية كونية أو عالمية تصلح للتطبيق في كل زمان ومكان ، مما يؤدي إلى إلغاء كل صور الخصوصية التاريخية والزمنية لهذه التصورات العقلانية العلمية غير الغربية.

ولا شك أن هناك العديد من الفلاسفة المحدثين والمعاصرين، الغربيين وغير الغربيين، انتقدوا التصورات الغربية للعقل والعقلانية، حيث انصب هذا النقد علي السلطة الأيديولوجية القابعة خلف هذه التصورات، أو بعبارة أخري ، رفض هؤلاء أن يتحول العقل إلى نوع من الأيديولوجيا التي يتم تبريرها تبريرا عقلانيا. لهذا كان معظم الهجوم علي العقل الغربي يهدف إلى فضح الأقنعة العقلانية التي تخفي السلطة الأيديولوجية ورائها ، ولعل أهمية بول فييرآبند في الفلسفة المعاصرة بوجه عام وفلسفة العلم بوجه خاص ، ترجع

إلى أنه تطرق إلى هذا التوظيف الأيديولوجي لمجال كـــان يعتـــبره العلمـــاء والفلاسفة بمنأى عن هذا التوظيف الأيديولوجي والتبرير العقلانـــــي، أعنـــي مجال العلم والمعرفة العلمية ، فقد تبين، كما جاء في ثنايا هذه الكراسة، كيف أن العلم الذي كان يبدو لفترة طويلة أنه موضوعـــي هـــو أكـــثر المجـــالات المعرفية التي يتم توظيفها توظيفا أيديولوجياً من حيث أنـــه يرتبـــط بتحقيـــق المصالح والمنافع الأداتية الغربية.

لهذا كان الدرس المعرفي والحضاري المستفاد من تصور فيـــرآبند الجديـــد للعقلانية العلمية ونقده للتصورات العقلانية العلمية الغربية التبريرية في فلسفة العلم، يكمن في ضرورة خلق وإبداع عقلانية علمية عربيـــة غـــير غربيـــة المركز، سواء كانت هذه الغربية علي المستوي المباشر كتبنـــي أطروحـــات غربية جاهزة، أو علي المستوي غير المباشر كتبني مناهج وأطر غربية دون أن نذكرها صراحة، ورسم صورة مشروع علمي حضاري عربي، التعدديـــة هي جوهره، فلا مكان للطابع الفردي الذي طبع مناهجنا وتصوراتنـــا طيلـــة قرون طويلة مما ولد القهر والتسلط وما رافقهما من فقدان الإنسان لقيمته، فلا مكان في هذا المشروع العلمي الحضاري لوجهة النظر الواحـــدة أو للمنـــهج الواحد ، أو للحزب السياسي الواحد، فهذه الوحدة كان يعتقد فيـــها ســـابقا أن لديها المفتاح السحري لحل جميع مشاكلنا العلميـــة والتكنولوجيـــة والثقافيـــة والاقتصادية والاجتماعية، إلا أن هذا لم يعد يلتفت إليه الآن، لهذا كـــان مـــن الضروري أن تساهم جميع وجهات النظر والمناهج والرؤي المختلفة قديمـــها وحديثها في صنع مستقبلنا العلمي العربي حتى يكون لنا دورنا الفعال علـــي المسرح العالمي.

المراجع

* Barthly III . W.W "Theories of Rationality" In . Radnitzky & Barthly. W (eds) "Evolutionary Epistemology Rationality and the Sociology of Knowledge" Open court .U.S.A .1993.

* Blanche . R . "Contemporary Science and Rationalism" Oliver & Boyed Edinburgh . 1968 .

* Brown H.I "Rationality" .Roytledge London.1988

* Burnt. J "early Greek Philosophy". The Meridian Library. New York . 1957.

* Burtt. E.A "the Metaphysical Foundations of Modern physical science" Routledge Kegan Paul. London. 1932.

* Dilworth. C "Scientific Progress: A study concerning the nature of the relation between successive scientific theories" D. Reidel. Publishing Co. Dordredt .1986

* Feyerabend. P "Imre Lakatos" In Brit. J. Phi. Sci. Vol. 26. 1975

* Feyerabend P "Problems of Empiricism" Philosophical Papers Vol. Cambridge Univ. Press London. 1981

* Feyerabend. P "Against Method: Outline of an anarchistic theory of knowledge" Verso. London .1984.

* Feyerabend. p. "How to Defend society against science in. (ed) Hacking. I. Scientific Revolution" Oxford Univ. Press. 1989..

* Feyerabend. P "Concluding unphilosophical Conversation." In (ed) Munevar. G "Beyond Reason: Essays on the philosophy of Paul Feyerabend". Kluwer Acd. Publishers. London. 1991

* Feyerabend P "Three dialogues of knowledge" Second Dialogue 1976 Black well. Oxford & Cambridge Press 1992

* Feyerabend. P "Killing Time: The Autobiography Of Paul Feyerabend" The Univ. Of Chicago Press. Chicago. 1995

* Feyerabend P "Knowledge, Science and Relativism: Philosophical Papers". Vol 3 (ed) by Preston J Cambridge Univ. Press. 1999.

* Hall. J. R "Can We Use History of Science To Decide Between Competing Methodologies?" In "Boston Studies In the Philosophy of Science" Vol .VIII . 1992 .

* Hampshire. S. "the Age of Reason: The 17th Century philosophers "the Memtor philosophers. New American library. New York . 1950.

* Kant .1 "Critique of Pure R eason: Philosophical Writings" (ed) Behler E. 13. C continuum . New york 1386..

* Kuhn. T. S "The Structure of Scientific Revolutions" the University of Chicago Press. Chicago. 1962 ..

* Kuhn. T, "Logic of Discovery or Psychology of research?" In (eds) Lakatos. I & musgrave. A. "Criticism and the Growth of knowledge". Cambridge Univ.. press. Vol.4 London. 1965.

* Kuhm, T. S "The Copenican Revoluation: planetary astronomy in the development of western thought". Cambridge Mass. Harvard Univ. Press. 1975.

* Lakatos. I. "History of Science and Its Rational Reconstructions" In Warrall. J & Currie. G (eds) Philosophical Papers: "the Methodology of Scientific Research Programms" Cambridge Univ. Press. London. 1980

* Laudan. L "Progress and Its Problems: Towards A theory of Scientific Growth" Routledge & Kegan Paul. London. 1977.

* Ne Smith.W. H "The Rationality Of Science" Routledge & Kegan Paul.-Boston. London. 1981.

* O, Hear. A "Karl Pooper" Routledge & Kegan Paul. London. 1980.

* Sheaper. D "The Structure of Scientific Revolutions" In: Gary Gutting (ed) "Paradigms and Revolutions: Appraisals and Applications of T. Kuhn,s Philosophy of Science" Notredam. London. 1980..

* Sheaper. D "Meaning and Scientific change. in "the search for knowledge: investigations in the Philosophy of science" Dardrecht. Reidel. 1984.

* Stegmuller. W "The Structure and Dynamics of Theories" New York. Springer - verlag. 1976.

* Watkins. J "Against Normal Science" In: Imre Lakatos & Alan Musgrave (eds) "Criticism And the Growth of Knowledge" Cambridge Univ. Press 1960.

* Wiener P.A (ed) "Dictionary of History of Ideas". Charles Scribners Son . New York .1973.

Vol 1. 47th edition . new providence New Jersey. U. S. A 1992. 1993.

• ابن منظور "لسان العرب" المطبعة الأميرية ببولاق. المجلد الحادي عشـر. ١٣٠٠هـ.

• إتين جيلسون "روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط" ترجمة د. أمـام عبد الفتاح إمام. دار الثقافة – القاهرة. ١٩٧٤..

• آلان شالمرز "نظريات العلم" ترجمة: الحسين سحبان. فـواد الصفـا. دار توبقال للنشر. المغرب. ١٩٩١.

• باشلار. جاستون "العقلانية التطبيقية" ترجمة د. بسام الهاشـم. المؤسسـة الجامعية. بيروت. ١٩٨٤.

• جاليليو جاليلي "حوار حول النمطين الرئيسيين للكون: النظام البطليموسـي والنظام الكوبرنيقي" جـ٢ ترجمة ا.د. محمد أسعد عبد الرءوف. الهيئـة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٩١.

• جيمس جينز" الفيزياء والفلسفة " ترجمة . جعفر رجـب. دار المعـارف . القاهرة (ب.ت)

* د . حسن عبد الحميد "دراسات في الابستمولوجيا" المطبعة الفنية الحديثة. القاهرة. ١٩٩٢.
* د. خالد قطب "منطق التقدم العلمي" دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة. ٢٠٠٣.
* روبرت . م أغروس. جورج . ن . ستانسيو " العلم في منظوره الجديد " ترجمة د . كمال خلايلي . سلسلة عالم المعرفة . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . الكويت . ١٩٨٩ .
* د . زكي نجيب محمود ." نحو فلسفة علمية" مكتبة الانجلو المصرية . القاهرة ١٩٨٠
* د. سالم يفوت " فلسفة العلم والعقلانية المعاصرة" دار الطليعة. بيروت . ١٩٨٢
* د. سالم يفوت" الفلسفة والعلم في العصر الكلاسيكي: سيادة التصور الميكانيكي " المركز الثقافي العربي. بيروت .١٩٨٩
* د. فؤاد زكريا. "التفكير العلمي" عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. ١٩٨٨..
* فيراندراشيخاوات : "بعض الاتجاهات الإبستمولوجيا في فلسفة العلوم" مجلة ديوجين. العدد ٧٢ . فبراير – أبريل ١٩٨٦ . مركز مطبوعات اليونسكو . القاهرة
* مالينوفسكي . برنسلاو" السحر والعلم والدين عند الشعوب البدائية ومقالات أخري " ترجمة د. فيليب عطية . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٩٥.
* د . محمد عابد الجابري " تطور الفكر الرياضي : العقلانية المعاصرة " دار الطليعة . بيروت . ١٩٧٦ .
* د. يمني طريف الخولي "العلم ،الاغتراب ،الحرية: مقال في فلسفة العلم من الحتمية الي اللاحتمية" الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة . ١٩٨٧-

* د. يمني طريف الخولي : " فلسفة كارل بوبر : منهج العلم .. منطق العلم " الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة . ١٩٨٩

* د. يمني طريف الخولي " فلسفة العلم في القرن العشرين" عالم المعرفـــة . المجلس الوطني للثقافة والفنون الآداب . الكويت ٢٠٠٠.